خلق الإنسان تقدير وقصد

Creation Of Man; A Rational Design and Predestination

د. محمد دودح
الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة
رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة (mdoudah@hotmail.com)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد:

ارتبط موضوع أصل الحياة والإنسان في تاريخ العلوم بالداروينية نسبة إلى دارون في كتابه "أصل الأنواع" الذي صدر في منتصف القرن التاسع عشر وقال فيه بتطور أنواع الأحياء بآليات افترضها مضمونها الصدفة، وخالفته الكشوف العلمية لاحقا فغير أنصاره الملامح تحت اسم "الداروينية الجديدة" مع استمرار الحفاظ على مضمون الصدفة، ويفترض سؤال اتفاق علماء الطبيعة عليها ابتداء فيقول: (هل هناك اتّفاق بين المختصين في العلوم وبين علماء الإسلام في مسألة أصل الإنسان؟)، ولكن لم يتفق المختصون عليها بحيث يصادم علماء الإسلام الواقع إذا خالفوهم، ومستعينا بالله تعالى أوجز القول في ضوء ثوابت علم الأحياء Biology وعلم تاريخ الإنسان Anthropology مبينا أن النقطة الجوهرية هي رفض فلسفة الحدوث ذاتيا صدفة مهما كانت كيفيات تقدير الخلق وفق ما يكشفها العلم، وأن تدرج التنويع ليس بالضرورة تطورًا، وذلك في النقاط التالية:

(١) معجزة التنويع في الخلق:



هل تصدق أن هذا البيت المنظم الأثاث
بنى نفسه ورتب الأثاث نفسه صدفة!!

أعلن مِندل عن اكتشاف قوانين الوراثة عام ١٨٦٥ فمهد لـــولادة علـــم الوراثة Genetics في أوائل القرن العشرين، وقبل نشوء علم الوراثة ومعرفة دور الجينات في الحفاظ على صفات النوع وراثيًا رأي لامارك Lamarck عام ١٨٠٩ أن أفراد الكائنات الحية تنقل السمات التي اكتسبتها في حياتها إلى الأبناء، فالزرافة مثلا تطورت عن طريق إطالة أعناقها شيئاً فشيئاً عندما كانت تحاول الوصول إلى الأغصان الأعلى، ولم يدرك دارون كذلك آلية الحفاظ على توريث صفات النوع وإن تنوعت الأفراد فافترض تغيره ذاتيا صدفة لأسباب خارجية عزاها إلى الطبيعة، ولكنها لا تمتلك إرادة واعية لتقرر ما ينفع وتنسق العمل بين الأعضاء وبين الذكر والأنثى فلا بد إذن من قوة عليا مدبرة، ومن المسلمات عند العقلاء أن البيت المرتب الأثاث لا يبني نفسه وينظم أثاثه ذاتيا وأنه لا بد من إرادة واعية بنته ورتبته، ولكن الفلسفة المادية Materialism أفرزت نظرية التطور عام ١٨٥٩ مخالفة أبسط المسلمات عندما افترضت أن الفوضى Chaos يمكن أن تصنع نظاما وأن الترتيب يوجد ذاتيا صدفة، فجوهرها في تفسير معجزة تنوع الأحياء هو إبداعات الصدفة ولذا من الأولى كشف القناع بتسميتها "نظرية الصدفة"، ولكن أدى اكتشاف تركيب الحمض النووي DNA البالغ التعقيد ليحافظ على سمات أسلاف كل نوع ويورثها للنسل إلى نقض قواعد نظرية دارون من الأساس، ومع ذلك استمر ترويجها مما يعكس غرضا عقائديا أكثر من كونها اهتمامات علمية بحتة.

وتدّعي الداروينية Darwinism أن الحياة بدأت بخلية تكونت صدفة من مركبات غير عضوية في ظروف أولية للأرض، ولكن لم ينجح أبداً أي شخص في تكوين تركيب خلوي واحد من مواد بسيطة ولا حتى في أكثر المختبرات تطوراً، والخلية أكثر تعقيدا وروعة في أداء وظائف الحياة مما كان يظن دارون في القرن التاسع عشر فهي تحتوي على محطات لتوليد الطاقة ومصانعَ مدهشة لإنتاج الإنزيمات والهرمونات اللازمة للحياة ونظم نقلٍ وخطوطَ أنابيب معقدة لنقل المواد الخام والمنتجات ومختبرات بارعة ومحطات تكرير تحلل المواد الخام إلى أجزائها الأبسط وبروتينات حراسة متخصصة تغلف أغشية الخلية لمراقبة المواد الداخلة والخارجة وبرنامج بالمعلومات الضرورية لتنسيق كل عمل في وقته، فهل يُبني هذا كله ذاتيا صدفة!.

وقد رأى البعض بحساب الاحتمالات أنه أيسر لقرد يعبث بمفاتيح آلة كاتبة أن يصنع قصيدة صدفة من صنع بروتين واحد صدفة فما بالك بالنظام والتخطيط والتصميم البديع الذي نراه في كل الكائنات الحية وجميع التكوينات في الكون أجمعه، ووفق الموسوعة العلمية البريطانية فإن اختيار كل الأحماض الأمينية Amino Acids وهي أساس تكوين البروتينات لتكون عسراء الاتجاه صدفة بلا تدخل واع أشبه بقذف عملة معدنية في الهواء مليون مرة والحصول دائماً على نفس الوجه!، ونشأة خلية حية واحدة من ذاتها يعد احتمالا مستحيلا مثل احتمال قيام القرد بكتابة تاريخ البشرية كله على آلة كاتبة بلا أخطاء، ويعني هذا أن خلية حية واحدة تتحدى مقولة الصدفة، وقد بين السير فرد هويل Sir Fred Hoyle في مقالة نشرت عام ١٩٨١ أن احتمال ظهور أشكال الحياة صدفة يقارن بفرصة قيام سيل يمر بساحة خردة بتجميع طائرة بوينج ٧٤٧ صالحة للطيران، والنتيجة التي يقود إليها العلم والمنطق وليس الإيمان فحسب هي أن كل الكائنات الحية قد جاءت بتخطيط واع وقصد أكيد، ومن يظل معتقدا في عصرنا بالفلسفة المادية بعدما دحضها العلم في مجالات علمية شتى عليه ألا يحسب نفسه من المحققين، قال ماكس بلانك: "ينبغي على كل من يدرس العلم بجدية أن يقرأ العبارة الآتية على باب محراب العلم: (تَحلَّى بالإيمان)"، وقال الدكتور مايكل بيهي: "على مدى الأربعين سنة الماضية اكتشف علم الكيمياء الحيوية.. أسرار الخلية، وقد استلزم ذلك من عشرات الآلاف من الأشخاص تكريس أفضل سنوات حياتهم.. وقد تجسدت نتيجة كل هذه الجهود المتراكمة.. لدراسة الخلية.. في صرخة عالية واضحة حادة تقول: التصميم (الذكي) المبدع!؛ والتصميم الذكي المبدع يؤدي حتماً إلى التسليم بوجود الله"*.

والتبصر في الأسماك والنباتات والحشرات والطيور وحيوانات البر وهي غافلة عنه يعني وجود توجيه وقصد لم تفرضه ضرورة وإنما أملته إرادة عليا تعلم بكل شيء فأعدت للحدث قبل وقوعه، فأقدام البط تمتلك غشاء منذ خروجه من البيض وليس وليد محاولات العوم، وثدي الأم يمتلئ بلبن سميك Colostrum قبيل ولادة الجنين وكأنه على علم مسبق بالموعد، ولا يقل التصميم الذكي في خلية أميبا عن التصميم في خلق فيل فهي تقوم على ضآلتها بنفس الوظائف الأساسية؛ بل كلما دقت الصنعة اتضح الإبداع وتجلى الإعجاز، فلا يهم إذن آلية الخلق طالما تجلى التوجيه والقصد، فهل طال أنف الفيل تطويرا أم تنويعا ليصنع خرطوما طويلا يقدم عونا كبيرا للفيل!، وهل اختارت المعدة إفراز حامض ليهضم الغذاء فيسهل امتصاصه بالأمعاء!، وهل طورت الشجرة نفسها لتسقط الأوراق قبيل فصل الشتاء فتحافظ على الغذاء أم هو التقدير والقصد!، وقد وصف تشاندرا كراماسنغي الحقيقة بقوله: "تعرض دماغي لعملية غسيل هائلة كي أعتقدَ أن العلوم لا يمكن أن تتوافق مع أي نوع من أنواع الخلق المقصود.. (ولكني الآن) لا أستطيع أن أجد أية حجة عقلانية تستطيع الوقوف أمام وجهة النظر المؤمنة بالله.. الآن ندرك أن الإجابة المنطقية الوحيدة للحياة هي الخلق وليس الخبط العشوائي غير المقصود"*، والبحث العلمي هو طريق معرفة آلية الخلق، ولكن بدء النشأة وتجددها في الأحياء والوظائف المحددة لكل تركيب خلوي وانسجام كل عضو مع مثيله وتناسب كل زوج مع بيئته ونظيره هو عند النابهين دليل أكيد على التقدير والتوجيه مهما كانت الكيفيات، وهذا ما يعلنه القرآن الكريم ولا يصعب إدراكه حتى على البسطاء: "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى" الأعلى ١-٣.

وتحت ضغط الحقيقة أقرت مصطلحات علمية مبدأ الخلق مثل التصميم الذكي Intelligent Design والكون الذكي Intelligent universe والتطور المبرمج Programmed Evolution والتطور الموجه بوعي Rational Directed Evolution وكلها تفصح عن تنظيم وتوجيه بلا فوضى وإنما تقدير Predestination فتعلن أن العلم يقود للإيمان، قال الفيزيائي هاوكنج Hawking: "ليس كل تاريخ العلم إلا التحقق التدريجي من أن الأحداث لم تقع بطريقة اعتباطية بل تعكس ترتيب ونظام ضمني أكيد"[١]، وقال: "طالما أن للكون بداية (واحدة أكيدة) فحتما لا بد من خالق (واحد)"[٢]، وقال الشيخ جوهري: "هذا النظام الجميل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته فإن هذا العالم المشاهد لا يمكن أن يصدر إلا عن إرادة لأن المادة عمياء جاهلة والجاهل لا يعطي علما"[٣]، والقرآن الكريم يدعو لتأمل تلك الحقيقة وراء الخلق: "أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِيءُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنشِىءُ النّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" العنكبوت ١٩و٢٠.

(٢) لطمات في تاريخ الداروينية:

دلت أقدم المتحجرات Fossils التي بلغ عمرها حوالي ٦٠٠ مليون سنة على أن الحياة ظهرت بأشكال عديدة فجأة حتى وصف ظهورها بالانفجار Explosion، وظهرت بهيئات بسيطة أولا من اللافقاريات Invertebrates ولكنها معقدة التركيب ابتداء بحيث امتلك بعضها عيون ذات عدسات كالفقاريات Vertebrates، ولا يعلم أحد حتى اليوم على وجه اليقين كيف ظهرت هذه الأنماط المعقدة دون أسلاف سابقة انحدرت منها، ومع هذا التنويع الهائل لا يمكن تفسير نشأة أشكال الحياة إلا بخطوات مقررة مسبقا في سجل خطة الخلق محددة الخطوات عند نشأة الكون نفسه بلا سبق مادة منذ نحو: ١٠-١٥ بليون سنة.

وطبقا للداروينية تكونت للأسماك أقدام بدل الزعانف وخرجت للبر لتكون البرمائيات ثم الزواحف ثم الطيور والثدييات، ولكن الفك السفلي للثدييات يتكون من عظمة أما في الزواحف فتوجد ثلاث عظام صغيرة على جانبي الفك السفلي، وكل الثدييات لديها ثلاث عظام في أذنها الوسطى هي المطرقة والسندان والرِّكاب بينما توجد عظمة واحدة في الأذن الوسطى لدى كل الزواحف، فإذا كان عدد العظام مقياسا للتطور فأيهما أكثر تطورا: ذوات العظام الثلاثة أم العظمة الواحدة أم أن الكل مؤهل في أقصى درجات الكمال بما يناسبه والتسلسل في ظهور الكائنات وانقراضها ما هو إلا تجدد في الإبداع بروعة مذهلة!.

وقد تنبأ داروِن قائلا: "إذا كانت نظريتي صحيحة فمن المؤكد أن هناك أنواعاً وسيطة لا حصر لها.. ولا يمكن أن تتوفر أدلة على وجودها في الماضي إلا بين بقايا المتحجرات"، ومنذ القرن التاسع عشر يبحث أنصاره عن حلقة مفقودة بلا جدوى فتسببوا دون قصد في تكذيب نبوءته وإن ملئوا الساحة برسوم ظنية وأفلام خيالية للتأثير على العامة ولكنها تفتقر لأدلة علمية، فالمشكلة الأساسية في إثبات الداروينية تكمن في سجل المتحجرات نفسه فلم تكتشف قط أية آثار للحلقات الوسيطة بين الأنواع وعوضاً عن ذلك تظهر أجناس وتختفي أخرى، وقد اكتشفت متحجرة سمكية لها ما يشبه الرئة البدائية قدر عمرها بحوالي ٤١٠ مليون سنة سموها كولاكانث Coelacanth وافترض أنها الحلقة الوسيطة بين الأسماك والبرمائيات، ولكن في ٢٢ ديسمبر عام ١٩٣٨ اصطيدت من المحيط الهندي أول سمكة حية من نفس النوع فتبين أنها لا تعيش قريبا من السطح لتغزو اليابسة وإنما على عمق لا يقل عن ١٨٠ مترا وأن ما حيك حولها من وجود رئة بدائية لجعلها حلقة وسيطة مجرد افتراء.

ويشكل تركيب الطيور خاصة الأجنحة ذات الريش والعظام الخفيفة عائقا كبيراً لفرضية دارون، فمن غير الممكن أن تكون قد تشكلت جميع تركيبات الطيور المطلوبة للطيران على انفراد تدريجياً هكذا صدفة عن طريق تراكم تغييرات موجهة في الإتجاه الصحيح دوما، وافترضت الحلقة الوسيطة بعد ظهور الديناصورات مع العثور على بقايا متحجرة لما يشبه ديناصور صغير له أجنحة سموه الأركيوبتركج Archaeopteryx يشتبه عدم نمو عظمة القص عنده وبالتالي عضلات صدره بما يكفى للطيران، ومع اكتشاف متحجرة عام ١٩٩٢ تبين أنه ليس إلا طائرا منقرضا من ذوي الأسنان بعظمة قص عادية وريش وهو من ذوي الدم الحار بعكس الديناصور الذي يخلو بعضه من الأسنان، ومثله في وجود مخالب الأجنحة للتمسك بالأشجار كمثل بعض الطيور اليوم مثل طائر التاووراكو Taouraco وطائر الهواتزن Hoatzin، واكتشفت في الصين عام ١٩٩٥ متحجرة لطائر معاصر له بلا أسنان سموه كونفوشيوسورنيس Confuciusornis مما ينفي أن الأسنان بالضرورة سمة للزواحف*، والخفاش يطير كذلك وهو حيوان ثديي ينتمي إلى فصيلة تختلف كل الاختلاف عن فصيلة الطيور، والحوت يسبح مع الأسماك وهو أيضا حيوان ثديي يختلف عن الأسماك، ولا سبيل لتفسير هذا التنوع البديع المعجز إلا القدرة المبدعة الخلاقة التي أتقنت كل شيء.

وكانت الضربة القاصمة للداروينية مع اكتشاف توريث صفات Traits كل نوع بما يحفظ خصائصه، وفي محاولة يائسة افترضت عام ١٩٤١ الطفرة Mutation ضمن النظرية التركيبية الحديثة للتطور The Modern Synthetic Evolution Theory، وسميت فرضية التطور البطيء التدريجي نتيجة تراكم تغييرات جينية باسم "الدارونية الجديدة New Darwinism"، ولكن ثبت أن الطفرة لم تأت بكائن جديد وإنما بمسخ عقيم إذا لم تكتف بتخريب وظائف الجينات في الحامض النووي الذي يحفظ الصفات، وقد باءت كل المحاولات بفشل ذريع حتى في الإتيان بميزة نافعة واحدة جديدة، فأُدخلت الطفرات على ذبابة الفاكهة Drosophila جيلاً بعد جيل لأكثر من خمسين سنة فلم ينتج سوى التشوهات ولم تخرج ذبابة واحدة قط بصفة واحدة جديدة محمودة، وأما نتيجة محاولة إحداث الطفرات على الإنسان فالمثال الحي ما حدث للأبرياء في هيروشيما وناجازاكي عام ١٩٤٥ حيث لم يكتسب ناج بعد إلقاء القنبلتين النوويتين أي صفة وراثية محمودة سوى التشوهات التي طالت الأجنة في بطون الأمهات وإصابة مختلف الأعمار بالسرطان، وفوق ذلك لم يعثر على أي من الأشكال الانتقالية التي من المفترض أن تدعم التطور التدريجي وكشف التشريح المقارن كذلك أن الأنواع التي يفترض أنها تطورت بعضها من بعض تتسم بسمات تشريحية بعيدة الاختلاف مما يستبعد الانتقال التدريجي ولذا استبدل بفرضية التطور بقفزات كبيرة متفرقة في بداية السبعينيات.

فاقترح بعضهم على سبيل المثال أن أول طائر خرج من بيضة إحدى الزواحف كطفرة هائلة؛ أي نتيجة صدفة ضخمة حدثت في التركيب الجيني، ولكن الطفرات لا تؤدي سوى إلى تلف المعلومات الوراثية ومن ثم فإن الطفرات الكبيرة لن ينتج عنها إلا تلف كبير، وهل نشأت الحياة ذاتها ابتداء كطفرة فجائية كبيرة! وهل نشأ الكون ذاته كذلك كطفرة عظمى!، ومضمون الداروينية الجديدة تراكم طفرات عشوائية في التركيب الجيني تدريجيا أو فجائيا ويتم انتقاء سمات أنفع بآلية الانتقاء الطبيعي كأساس للتطور!، ولكنها بوجهيها كالدارونية القديمة تماما لم تكن نظرية علمية أبداً بل كانت مبدأ فلسفي يروج للإلحاد بخفاء حذر، ولو صح الانتقال التدريجي أو الفجائي في نشأة الأنواع فلن يكون ذلك صدفة بل كعمليات خلق موجهة بوعي.

(٣) التزوير في تاريخ الداروينية:

يقوم الداروينيون بإعادة البناء بالرسوم أو النماذج استناداً إلى بقايا المتحجرات باستخدام التخمين، ويمكنك أن تشكل من جمجمة نموذجا بملامح شمبانزي أو بقسمات فيلسوف ولذا لا تحظى بأي قيمة علمية وإن ضللت العامة، وتعد الرسوم الثلاثة المختلفة لمتحجرة القرد الأفريقي الجنوبي القوي (Australopithecus robustus**)** Zinjanthropus **مثالاً شهيراً لمثل هذا التزييف.**

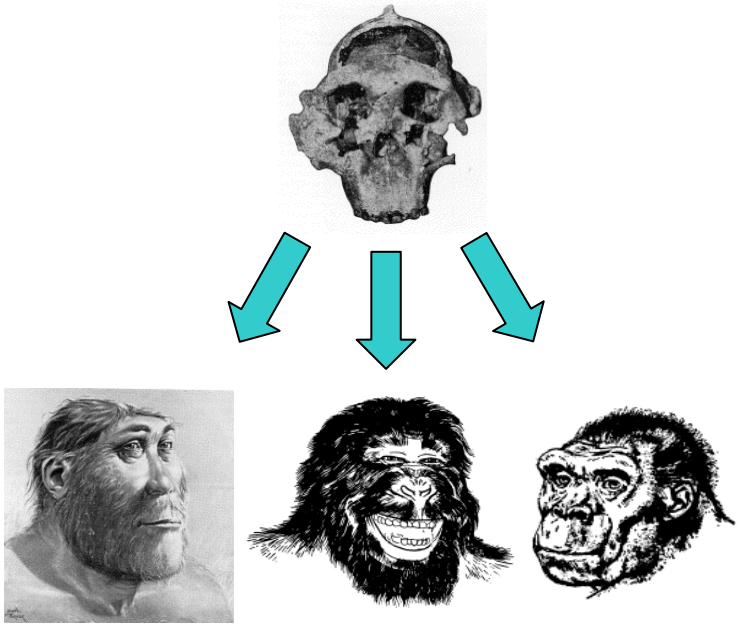



ومع ذلك فإن هذه الحيل تبدو بريئة إذا ما قورنت بأعمال التزييف المتعمدة التي ارتكبت في تاريخ الداروينية، فلا يوجد دليل حفري موثوق على وجود حلقة وسيطة بين الإنسان وأقرب الثدييات شبها، فادعى تشارلز داوسون عام ١٩١٢ الحلقة المفقودة بعثوره على جزء من جمجمة وعظمة فك داخل حفرة في بيلتداون بإنكلترا فسماه إنسان بِلتْداون Piltdown Man**، وعرضت العينة في المتحف البريطاني بزعم أن عمرها خمسمائة ألف سنة وكُتب عنها ما لا يقل عن خمسمائة رسالة دكتوراه، ولم تكتشف الخدعة إلا عام ١٩٤٩ عندما اختبر المتحف عمرها بطريقة الفلورين فتبين أن الجمجمة عمرها نحو خمسمائة سنة والفك حديث العهد يرجع لقرد والأدوات الحجرية الموضوعة معهما مقلَّدة فأعلنت الفضيحة عام ١٩٥٣ على الجمهور.**



وفي عام ١٩٢٢ أعلن مدير المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي عن عثوره على ضرس متحجرة في نبراسكا يحمل صفات مشتركة بين الإنسان والقرد، فسماه البعض إنسان نبراسكا كما أُعطي له في الحال اسماً معقدا صعب النطق حتى يضفي نوعا من العلمية هو هسبيروبايثيكوس هارولدكوكي Hesperopithecus Haroldcooki**، واستناداً إلى الضرس الأوحد رُسمت الرأس وأعيد بناء الجسد تخمينا بل تم رسمه مع زوجته في الغابة، ولكن في عام ١٩٢٧ عُثر على أجزاء أخرى من نفس الهيكل العظمي وتبين أن الضرس يخص نوعاً منقرضاً من الخنازير البرية يسمى بروثينوبس** Prosthennops**.**

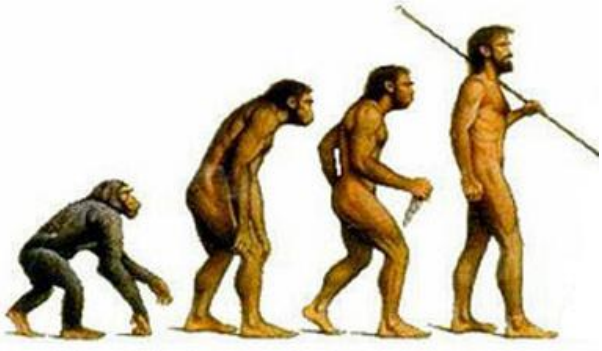

وشجرة عائلة الإنسان المزعومة تمتد إلى القرد الأفريقي الجنوبي Australopithecus**، ومنه نشأ الإنسان مستخدم الأدوات** Homo habilis **ثم الإنسان منتصب القامة** Homo erectus**، وأخيرا ظهر الإنسان العاقل**

Homo sapiens، والطريقة التي تتحرك بها القردة أسهل وأسرع وأكفأ من مشية الإنسان على قدمين لأنه لا يستطيع أن يتحرك بالقفز بين الأشجار، ووفقاً لمنطق نظرية التطور كان حرياً به من هذا الجانب أن يتطور ليصبح من ذوات الأربع، وتبلغ أنواع القردة أكثر من ستة آلاف نوع لم يتبق منها اليوم سوى حوالي مئة وعشرين نوعاً فقط وتمثل البقية المنقرضة مصدراً ثرياً لتزييف الحقائق، والمتحجرات التي يدّعى أنها أسلاف للإنسان فإنها إما تخص قرودا منقرضة أو تخص أجناساً بشرية قديمة عاشت حتى فترة قريبة ولها نفس الهيئة والصفات الجسدية لبعض المجتمعات البشرية اليوم، وفي البحث الحديث الذي أجري في عام ١٩٩٤ حول قنوات التوازن في الأذن الداخلية تم تصنيف القرد الجنوبي والإنسان مستخدم الأدوات ضمن فئة القردة بينما صُنّف الإنسان منتصب القامة ضمن فئة البشر، وأشهر العينات المكتشفة في أفريقيا ونسبت زورا للإنسان منتصب القامة هي تلك التي عُثر عليها قرب بحيرة توركانا في كينيا ثم تبين لاحقا أنها لغلام في الثانية عشر من عمره لذا سميت متحجرة غلام توركانا Turkana Boy، وما سموه بالنياندرتاليين Neanderthals جنس بشرى أثبتت الكشوف أنهم كانوا يدفنون موتاهم ويصنعون الآلات الموسيقية، وإذا كانت سعة الجمجمة معيارا للذكاء فالإنسان الكرومانيوني Cro-Magnon على هذا أكثر ذكاء من الإنسان الحالي لأن سعة جمجمته أكبر*، يقول د. حامد خوجة: "إن خلايا القرود تحوي ثمانية وأربعين كروموزومًا بينما الخلايا البشرية تحوي ستة وأربعين.. غير أن حدثًا هامًّا عظيمًا في تاريخ البشرية قد وقع.. عندما قام مجموعة من العلماء في جامعة أكسفورد.. باستخدام الطرق المتطورة.. وقد كانت دهشتهم شديدة عندما وجدوا أن جميع هذه المخلوقات (أشباه الإنسان) كانت لديها ستة وأربعون كروموزومًا.. (و)لا يوجد.. فارق بين إنسان جاوة وإنسان مدغشقر وإنسان أفريقيا وإنسان جبال الألب والإنسان الحالي"[٤].

(٤) فلسفة استعمارية:

افترض داروين صراع قاس من أجل البقاء في الطبيعة تزول معه أشكال ضعيفة لم تتكيف مع بيئتها تتولد ذاتيا دوما وتبقى أخرى نجحت الصدفة في إبداعها بطريقة أحكم، وبذلك يكون التطور سلسلة من المنتخبات تميزت فيها الأنواع عبر حلقات وسيطة عديدة، ولذا كان العنوان الكامل لكتابه الأول الذي نشر عام ١٨٥٩ واشتهر باسم "أصل الأنواع" هو: "أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي أو الحفاظ على الأجناس المفضلة في الصراع من أجل الحياة The Origin of Species by Means of Natural Selection or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for life"، ولكن علم الأحافير قد قدم ضربات أليمة لفرضية دارون فقد استنفذت الجهود ولم يعثر على أي حلقة وسيطة وفعل علم الأحياء نفس الشيء ولم يعثر على كائن واحد قط من أصغر خلية إلى أكبر حيوان غير متكيف مع بيئته تشريحيا ووظيفيا وسلوكيا.



وفي كتابه الثاني "سلالة الإنسان The Descent of Man" قدم دارون عام ١٨٧١ مزاعم حول تطور الإنسان من كائنات شبيهة بالقرود، فبدأ البحث والتنقيب ليس عن متحجرات فحسب بل عن سلالات بشرية حية تمثل الحلقات الوسيطة، فقام أحدهم عام ١٩٠٤ في الكونغو باصطياد رجل أفريقي متزوج ولديه طفلان، وبعد تقييده بالسلاسل ووضعه في قفص كالحيوان نُقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تم عرضه على الجمهور في إحدى حدائق الحيوان تصحبه بعض القردة بوصفه أقرب حلقة انتقالية للإنسان الغربي الأبيض، وأخيرا انتحر الرجل المسالم الذي كان يسمى بلغته المحلية أوتا بينجا Ota Benga بمعنى: الصديق*، وليس من قبيل الصدفة أن يُكتب في بروتوكولات حكماء صهيون العبارة التالية: "لاحظوا هنا أن نجاح دارون Darwin.. قد رتبناه من قبل والأمر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد"[٥]، والزعم بصراع حضارات الأجناس البشرية ليس إلا غرضا استعماريا يتخفى بعباءة علمية زائفة ومضمونه تمييز عنصري، وهو جد الزعم بالإنسان الأمثل Superman سليل الإنسان الغربي الأبيض الذي يسود وتنقرض بقية الشعوب أو تصبح له عبيد، وما زالت البشرية تدفع ثمنا باهظا نتيجة لهذه الأفكار الزائفة التي جعلت دولا معاصرة تمارس همجية الغاب بادعاءات كاذبة.

(٥) رأي الكنيسة:

اعتمادا على سفر التكوين geneses رفضت الكنيسة الداروينية ليس لسبب تجاهل تدبير الله فحسب وإنما لمصادمة نصوص يستحيل تأويلها على تطور النوع تدل على أن آدم هو أول إنسان على الأرض وأنه خلق مباشرة من ترابها بلا أطوار تسبقه: "وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حيّة" تكوين ٧، وأنه فقد ضلعا خُلقت منه امرأته مباشرة: "فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم" تكوين ٢١و٢٢، ولذا اختارت الكنيسة رفض التطور بحزم وإلا شككت في صحة التدوين.

(٦) رأي الباحثين المسلمين:

رفض جُل الباحثين المسلمين الداروينية إجمالا باعتبارها أحد شباك الإلحاد كما يُرفض الطعام كله إذا خالطه سم، قال الدكتور أحمد أبو خطوة: "نحن كمسلمين لا نتفق إجمالا مع نظرية التطور إن لم تُدخل في اعتبارها القدرة والمشيئة الإلهية"[٦]، واكتفى البعض برفض الصدفة وتوقفوا في إمكان الأطوار المقدرة كتفسير للتنويع الهائل في أشكال الكائنات الحية على الأرض، فوافقوا نظريات حديثة تجعل التقدير أساسا للتطور إن صح كمقولة التطور الموجه بوعي Rational Directed Evolution وتجنبوا الخوض فيما لم يفصل فيه العلم بعد؛ فقد جاء في فتاوى الأزهر: "ورد أن الله خلق الإنسان نوعا مستقلا لا بطريق النشوء والاشتقاق من نوع آخر، وإن كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الذي يدخل تحت قدرة الله تعالى، قال بعض العلماء: إنه لا يوجد في النصوص أن الله خلق الإنسان الأول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل على انفراد فسبيل ذلك التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين حتى يقوم الدليل القاطع عليه فنعتقده ما دام أن الذي فعل ذلك كله هو الله تعالى، ثم إن النواميس المذكورة في مذهب داروين ظواهر واضحة في الكون ولا حرج في اعتقادها ما دام أن الله هو الذي خلقها ووجهها فهي لا تحقق وجودها من نفسها: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لآ إِلَـهَ إِلاّ هُوَ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ} الأنعام ١٠٢، فهو خالق المادة والنواميس"[٧]، "(ولكن) قولهم إن المخلوقات خُلقت عشوائيا بغير تدبير سابق وعلم محكم يرده قول الله سبحانه: {إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} القمر ٤٩"[٨].

وقال الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم: "يقرر العلم الحديث أن الحياة ظهرت على هذه الأرض أول ما ظهرت على شواطئ المسطحات المائية حيث يتكون بجوارها الطين الذي نشأ منه.. النبات فالحيوان فالإنسان وأن هذا التطور في حالات الطين وأشكاله.. حدثت عبر ملايين السنين حتى أثمرت.. وكان أكمل وأكرم ثمره من ثمارها في النهاية هو الإنسان، والقرآن الكريم لم يبين لنا كيف تفرعت هذه الشجرة حتى كان الإنسان أحد فروعها ولكنه أشار في أكثر من آية إلى الصلة الوثيقة بين الإنسان وعالم الأحياء الناشئ من الماء الممزوج بالتراب، ففي قوله تعالى: "وَاللهُ خَلَقَ كُلّ دَآبّةٍ مّن مّآءٍ" النور ٤٥، وقوله سبحانه: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلّ شَيْءٍ حَيّ" الأنبياء ٣٠؛ دلالة قوية على أن الأحياء كلها ومنها الإنسان مخلوقة من مادة واحدة هي الماء"[٩]، وقال سيد قطب: "شطر الآية.. "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلّ شَيْءٍ حَيّ" الأنبياء ٣٠؛.. يقرر.. حقيقة.. أن الماء هو مهد الحياة الأول.. وأقصى ما يُقال.. إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات"[١٠].

وساق البعض نقولا عن علماء مسلمين تصرح بأن التدريج مع التنويع وتطور الأشكال ظاهرة واضحة في الكون ولا تُعارض أن الله تعالى هو المدبر وإنما تُبين كيف بدأ الخلق، فغاية الوجود معرفة الله وعبادته ولذا كانت الوجهة منذ خلق الكون والأرض هي إيجاد الإنسان صاحب الفكر ليقوم بالمهمة، والتطوير دليل على التقدير وإلا ما كانت الوجهة دائما نحو الأرقى، قال ابن خلدون: "أنظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف..، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر"[١١]، وقال البروسوي: "يكون الإنسان في زمرة الجمادات وأول نعمة عليه أن الله تعالى كرمه فنقله من عالم الجماد إلى عالم النبات ثم عظم شأنه فنقله من عالم النبات إلى عالم الحيوان فجعله حساسا متحركا بالإرادة ثم نقله إلى عالم الإنسان فجعله ناطقا وهي نعمة أخرى أعظم مما سبق"[١٢]، وفي تفسير الميزان: "العناية الإلهية تهدي أنواع النبات والحيوان إلى كمال خلقها وغاية وجودها"[١٣].

ولكن علماء الإسلام لم يستخدموا كلمة التطور Evolution على نحو ما تعنيه في الداروينية وإنما بمعنى الترقي المتدرج في التنويع بيانا لوحدانية الله تعالى وقدرته، فوحدة الخلق في الأصل والطبيعة دليل على وحدانيته وطيف التدرج الواسع في التنويع دليل على قدرته تعالى، قال جوهري: "سنة التطور والارتقاء .. تجري عليها الطبيعة في جميع أركانها من الذرة.. إلى النظام الشمسي"[١٤]، و"سنة الكون الترقي من أسفل إلى أعلى"[١٥].. "لا يُخلق الأعلى إلا بعد خلق الأدنى فلم يُخلق الحيوان إلا بعد خلق النبات ولم يُخلق الإنسان إلا بعد خلق الحيوان"، ولكن "شعار الكون هو ذا: الوحدة في التفنن، فإن صعدت في سلم العوالم وجدت وحدة النظام والخلقة مع تفنن لا يعرف حده في تلك الأجرام الفلكية، وإن أجلت بنظرك في مراتب الحياة من (أدنى) الكائنات إلى أعلاها وجدت وحدة التناسب والتسلسل، كذلك القوى الطبيعية كلها صادرة بالتسلسل عن قوة أصلية واحدة"[١٦]، وقد "خلق اللهُ العالم من مادة واحدة ليستدلوا على (وحدانيته) وقدرته"[١٧]، وفي بيان الحكمة وراء خلق الجنين الإنساني في أطوار قال ابن

عاشور: "التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم وإبرازُه على أحكم وجه هو من أثر القدرة"[١٨]، و"الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته فإن تطور الخلق.. والذاتُ واحدة.. دليل على تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار"[١٩]، وقال سيد قطب: "ليس هناك ما يمنع من وجود أنواع من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض بفعل الظروف السائدة في الأرض ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حياتها ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة، ولكن هذا لا يحتم أن يكون بعضها متطوراً من بعض"[٢٠].

وتجنب آخرون المأثور وسلكوا مسلك التأويل على وجه غير شائع في التفسير بغير جزم، فقالوا مثلا: الزواحف تمشي غالبا على بطنها كالتمساح لثقله وتمشي الطيور على رجلين والثدييات على أربع؛ فإذا كان هذا هو ترتيب خلق أنواع الحيوان قبل الإنسان فهو نفس الترتيب مع بيان وحدة الأصل في قوله تعالى: "وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىَ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىَ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىَ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" النور ٤٥، وعندما يحدثك القرآن قائلا: "خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ" العلق ٢؛ فلا يعني خَلق الجنين مما يماثل علق البرك مباشرة وإنما أطوارًا وكذلك لا يعني خلق النوع الإنساني من طين البرك مباشرة، ولم يقل القرآن بأن الطين أصل مباشر للإنسان بل جعله بداية فحسب: "الَّذِيَ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ من طِينٍ" السجدة ٧، وكما كانت كل أطوار الجنين قبل تكامله مستلة من أصل أبعد هو ماء التناسل وفق قوله تعالى: "ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ من سُلاَلَةٍ مّن مّآءٍ مّهِينٍ" السجدة ٨؛ فكذلك كل أطوار النوع الإنساني قبل تكامله مستلة من أصل أبعد وفق قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ من سُلاَلَةٍ مّن طِينٍ" المؤمنون ١٢، وأجل أطوار النوع مقدر كأجل أطوار الجنين ولكن القرآن عبر عنه بالتمهل دون أجل الجنين: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىَ أَجَلاً وَأَجَلٌ مّسمّى عِندَهُ" الأنعام ٢.

ولم يورد القرآن رواية الضلع المفقود ودل على اصطفاء آدم كالأنبياء من بين أقوامهم وبقية الأجناس مما يحتمل أنه نبي رأس أمة ولقبها: "إِنَّ اللهَ اصْطَفَىَ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" آل عمران ٣٣، وإلا كيف تفسر الهمجية قبله في قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدّمَآءَ" البقرة ٣٠، وكيف تفسر خلق البشر قبله وتبدل صورهم في قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمّ صَوّرْنَاكُمْ ثُمّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ" الأعراف ١١، وكيف تفسر انتصابهم قبله بشد مفاصل ظهورهم في قوله تعالى: "نّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً" الإنسان ٢٨، وكيف تفسر التعبير عن طول أمد تكوين النوع الإنساني دون الجنين بالدهر قبل أن يتكامل ويصبح ناطقا ومفكرا ذي اعتبار في قوله تعالى: "هَلْ أَتَىَ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مّنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مّذْكُوراً" الإنسان ١، وفي قوله تعالى: "إِنّ مَثَلَ عِيسَىَ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" آل عمران ٥٩؛ قد يقال أنه كآدم وكانت نشأته مباشرة فكذلك يجب أن تكون نشأة آدم من تراب مباشرة، ولكن لا توجد دلالة صريحة على خلقه هكذا فجأة وإنما المقام بيان للاقتدار ولذا المثلية في الاقتدار وظاهر المعنى أن الذي قدر على إيجاد آدم من تراب رغم الفرق الشاسع بينهما أهون عليه خلق عيسى نظيره بلا أب، وتقدير خلق آدم أطوارا يعمق الفرق ويبين القصد ويجلي الاقتدار، والقول بخلق الإنسان أطوارا يفيد أنه المقصود على طول أطوار خلق الكون ولذا يرجعه القرآن عند التفصيل إلى طين لازب لتتضح سعة النقلة، وفي قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مّنْ حَمَإٍ مّسْنُونٍ" الحجر ٢٦؛ الحمأ المسنون أشبه ما يكون بصخر ناري طحنته السنون وكلها أحوال مرت بها الأرض، وقد نجحت الفيزياء في إثبات توحد معظم القوى الفيزيائية وتسعى جاهدة لإثبات توحدها جميعا في حالة سميت بالتوحد الكبير super unification أساسها الأول موجة واحدة تتردد في عجل سميت بالقوة الكبرى Super Force شكلت كل القوى والمواد ثم نشأت الحياة وأخيرا ظهر الإنسان على الأرض، وبعكس المعتاد في وصف خُلْقه وطبعه نحو قوله تعالى: "وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً" الإسراء ١١؛ يُرجع القرآن الإنسان في مقام بيان طبيعته وأساس خَلقه وتكوينه للحالة الأولى للكون كتعبير عن الشيء بلازمه حيث لم تكن مادة وإنما الأساس موجة أو اهتزازة تتردد في عجل في قوله تعالى: "خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ" الأنبياء ٣٧.

وفي قوله تعالى: "مّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً" نوح ١٣و١٤؛ قالوا: لا قيد مخصص بأطوار الجنين وظاهره مجموع نوع الإنسان منذ كان نباتا خاصة مع الاستطراد بعده بآيتين: "وَاللهُ أَنبَتَكُمْ مّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً" نوح ١٧، قال الجاعوني: "الكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه واستعارة.. (و)استدلّ بها (الشيخ الوائلي) على أنها قد تشير إلى خلق الإنسان التدريجي من طور إلى آخر.. (وقال) هذه النظريّة أي تطوّر النبات إلى حيوان ثمّ إلى إنسان.. إذا قلنا.. عفوًا (أي ذاتيا صدفة؛ فهي) مرفوضة من أساسها.. (لأنه) لا شيء عفوًا بل بإرادة الله، (و)إذا قلنا.. (بتقدير) الخالق.. لا عفوًا فلا ضير من ذلك"[٢١].

ومجمل القول أن إدعاء الداروينية بأن الأشياء تَخلق وتطور نفسها تشريحيا ووظيفيا وسلوكيا بذكاء وهي غافلة هكذا ذاتيا صدفة يأباه المنطق ويدفعه انعدام الفوضى في الكون، والاستنصار لنشأة الإنسان من الحيوان بلا دليل علمي سيظل كذلك مجرد ادعاء فلا ضرورة إذن للتأويل، وإذا ظهر دليل يرجح الأطوار معترفا أنها مقدرة فلا يعارض القرآن حقيقة ثابتة مطلقًا، ويكفي

سبقه في بيان أول حالة للكون دليلا على الوحي وتأكيدا لخلق الإنسان بتقدير وقصد منذ البدء مهما كانت الكيفيات كثمرة للقدرة المبدعة التي رتبت كل الأحداث بعلم واقتدار في قوله تعالى: "خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ" الأنبياء ٣٧.

---

١ "The whole history of science has been the gradual realization that events do not happen in an arbitrary manner, but that they reflect a certain underlying order." (Brief history of Time, page 140)

٢ "So long as the universe had a (Certain one) beginning .. it had a (Certain one) Creator." (Brief history of Time, page 122)

٣ تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج٢١ص٢٥٩.

٤ حقيقة نظرية داروين د. حامد إسحاق خوجه مجلة الإعجاز العلمي العدد ١١.

٥ بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الثاني.

٦ د. أحمد نبيل أبو خطوة العدد الخامس من مجلة الإعجاز العلمي.

٧ فتاوى الأزهر ج٧ص٣٩٩.

٨ فتاوى الأزهر ج٧ص٤١٢، مجلة الأزهر ج٢ص٧٤٩، مجلة الهداية البحرين عدد مارس ١٩٩٣.

٩ القرآن وإعجازه العلمي - الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم ج ١ص٩٧.

١٠ في ظلال القرآن لسيد قطب المتوفى سنة ١٣٨٦ هـ ج٥ص١٥٥.

١١ مقدمة ابن خلدون ج١ص٤٠.

١٢ تفسير حقي البروسوي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ ج١٣ص٧١.

١٣ تفسير الميزان للطباطبائي المتوفى سنة ١٤٠٢ هـ ج٩ص٢٩٣.

١٤ تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج٧ص١٤٠.

١٥ تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج٢ص٤٨.

١٦ تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج٢ص١٨٠.

١٧ تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج١ص١٤٦.

١٨ تفسير الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣هـ ج١١ص١٠١.

١٩ تفسير الطاهر بن عاشور المتوفى سنة ١٣٩٣هـ ج١٥ص٣٣٧.

٢٠ في ظلال القرآن لسيد قطب المتوفى سنة ١٣٨٦ هـ ج٣ص١٩٥.

٢١ النشوء والارتقاء ورؤية القرآن للخلق - تاج الدين محمود الجاعوني.

(*) خديعة التطور - عدنان أوكطار (هارون يحيى، جاويد يالجن):
المرجع الرئيس للمعلومات العلمية باختصار وتصرف.